محور النظريات المفسرة للسلوك الاجرامي

إعداد و تقديم: الأستاذ جابر نصرالدين

مخبر الدراسات النفسية و الاجتماعية

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية– جامعة بسكرة

.n.djaber@univ-biskra.dz

العناصر:

تعريف النظرية.

النظرية البيولوجية.

النظريات النفسية المفسرة للسلوك الإجرامي.

المبادئ العامة للمدارس و الاتجاهات النفسية في تفسير الانحراف و الجريمة.

العوامل النفسية المولدة للجريمة.

نظرية التحليل النفسي .

النظرية السلوكية المعرفية.

النظرية النمائية

نظرية التحكم بالذات

تعريف النظرية:

تُعرفُ النظريّة لغةً: بأنّها مصطلح مشتق من الكلمة الثلاثيّة نَظَرَ، ومعناها التأمّل و التدبر أثناء التفكير بشيء ما، أمّا اصطلاحاً: فتُعرف بأنها جملة القواعد والمبادئ التي تُستخدمُ للبرهنة أو لوصفِ ظاهرة أو شيء ما. ومن التعريفات الاصطلاحيّة للنظريّة العلمية: هي دراسة موضوع معين دراسة عقلانيّة ومنطقيّة، من أجل استنتاجِ مجموعة من النتائج التي تساهمُ في تعزيز الفكرة الرئيسيّة أو الفرضية التي تُبنى عليها النظريّة .

كما تعرف النظرية على أنها مجموعة متصلة ببعضها من المفاهيم و المسلمات و الفرضيات والمبادئ بشأن ظاهرة ما؛ لغرض تفسيرها أو التنبؤ بها.

و في سياق الدراسة العلمية للسلوك الإجرامي صيغت العديد من النظريات من اجل فهم و تفسير هذا النوع من السلوك. نذكر منها:

النظرية البيولوجية.

*** الوراثة**

ثار الجدل و مازال بين العلماء حول أثر الوراثة على السلوك عموما و على السلوك الإجرامي خصوصا.

فذهب فريق إلي القول أن الإنسان يرث عن والديه السلوك الإجرامي وتزعم هذا الاتجاه العالم "لمبروزو" . و لكن ليس من المقبول عقلا أن يكون ابن المجرم مجرما على سبيل القطع واليقين . ولهذا اتجه فريق آخر إلي التقليل من قيمة و تأثير الوراثة في إنتاج السلوك الإجرامي والقول بأن هذا السلوك يرجع إلى العوامل البيئية المحيطة بالمجرم فقط

و يمثل هذا الاتجاه العالم الأمريكي سذرلاند حيث يرى أن تشابه الخصائص الذي نلاحظه بين السلف والخلف لا يرجع إلي الوراثة إنما يرجع إلي تأثر كل منهما بظروف بيئية واحدة.

والحقيقة أن كلا الفريقين قد أصابا نسبيا في البحث عن العوامل المولدة للسلوك الإجرامي .

و هناك طرق ثلاث لإثبات العلاقة بين الوراثة و السلوك الاجرامي :

- دراسة شجرة العائلة:

تقوم هذه الدراسة على ملاحظة الإجرام بين أفراد أسرة واحدة على مدى عدة أجيال ومقارنتها بعينة ضابطة تتمثل في أسرة أخرى لم يجرم أفرادها . ومن أقدم الدراسات التي أجريت في هذا الخصوص الدراسة المتعلقة بعائلة ماكس جوكسMax Jukes الأمريكية. حيث بينت دراسة تتبعية لـ 3000 شخص منها وجود حالات : القتل، السرقة،النهب، السطو، الدعارة ، التسول ... الخ. وعدد آخر من المصابين بأمراض عقلية وكذلك البلهاء والمصابين ببعض الأمراض التناسلية كالزهري. كما أجريت دراسة مشابهة على عائلة فيكتوريا التي لم يبرا من الانحراف من أفرادها البالغين 79 إلا ثمانية فقط (عبد الرحمان محمد أبو شوشة .1999.ص 160).

-الدراسة الإحصائية لأسر المجرمين:

حاولت هذه الطريقة أن تتفادى الخطأ المنهجي الذي وقعت فيه الطريقة السابقة فلا تكتفي بدراسة حالات منفردة ومنتقاة وإنما تبحث في حالات متعددة وغير منتقاة كما أنها لا تكتفي بدراسة ذرية أحد المجرمين وإنما تمتد لتشمل بجانب الفروع جميع أقرباء المجرم كأبناء العم والعمة وأبناء الخال والخالة . وتتم هذه الدراسة بأحد أسلوبين : أما باختيار عدد من المجرمين ثم البحث فيما إذا كان لدي أسلافهم أو أقربائهم عيوب وراثية وإما اختيار عدد من الشواذ ثم بحث مدي التكرار الجريمة بين خلقهم وأقربائهم . ويقصد بالعيوب الوراثية ظهور الأمراض العقلية والنفسية وبعض الأمراض المعدية وإدمان الكحول والمسكرات وكذلك تكرار الإجرام بين الأقرباء يزيد من دقة هذه الدراسة مقارنتها بمجموعة ضابطة من غير المجرمين أو من غير الشواذ. وقد أجريت دراسة على 477 من المجرمين تبين منها أن 88 من الأسلاف سبق ارتكابهم جرائم وأن 85 كانوا مصابين بأمراض عقلية وأن 85 آخرين كانوا مصابين بأمراض نفسية وأن 33 كانوا مصابين بالصرع(عبد الرحمان محمد أبو شوشة.

1999.ص 165). كما يعزو العالم جورنج Goring التشابه في السلوك الإجرامي بين الآباء و الأبناء إلى عامل الوراثة ، و أن هذا التشابه وصل إلى نسبة 60% (علي محمد جعفر.1984.ص 30) . و هناك من يعتقد بان ما يساعد على وراثة السلوك الإجرامي أن المجرم كثيرا ما يقترن من بين النساء بامرأة تتفق معه في ذات الميول و تكون في الغالب من أسرته لا غريبة عنه.(رمسيس بهناز.1970.ص 111) . وقد أسفرت الدراسات الإحصائية للأسر عن نتيجتين:

الأولي أن أغلب المجرمين ينتمون إلي أسر ينتشر فيها الإدمان على تناول المسكرات والشذوذ العقلي والنفسي والانحراف على اختلاف صوره.

والثانية أن الأسر التي ينتشر فيها الشذوذ يسلك أغلب أفرادها سبيل الجريمة أي أن هناك علاقة بين الإجرام والشذوذ من جهة وبين الوراثة من جهة أخري . وانتقد بعض العلماء الدراسة الإحصائية لأنها لم تقطع بأن الوراثة وحدها هي التي تؤدي إلي إجرام الفروع. و مثل هذا النقد مقبول لأن الوراثة لا يمكن أن تكون كذلك، فالعوامل البيئية المختلفة تساهم مع الوراثة في توجيه الأبناء إلي المسلك الإجرامي. بل أن ما يؤخذ على هذه الدراسة هو عدم بحثها في أثر العوامل البيئية على السلوك الإجرامي إضافة للوراثة.

- دراسة التوائم:

التوائم هم الأبناء الذين يجمعهم حمل واحد و وضع واحد والتوائم نوعان :

- توائم متماثلون أو متطابقون أو حقيقيون. وطبقا لقوانين الوراثة فإن التوائم المتماثلين أو المتطابقين يولدون متساويين تماما في خصائصهم الوراثية فيتشابهون في ملامحهم الخارجية ويشمل التشابه بينهم جميع الصفات والخصائص العضوية .

- أما التوائم غير المتماثلين أو غير المتطابقين لا يصل التشابه بينهم مقارنة بالتوائم الحقيقية، فهم لا يختلفون عن بقية الأخوة والأخوات الأكبر أو الأصغر منهم سنا . وتقوم

دراسة التوائم على أساس التمييز بين التوائم المتطابقين من ناحية والتوائم غير المتطابقين من ناحية أخرى . وفي نطاق كل فئة تتم مقارنة سلوك كل زوج من التوائم. فبالنسبة لفئة التوائم المتماثلة إذا كان أحدهما لديه ميل أو استعداد إجرامي فلابد أن يتوافر هذا الميل أو الاستعداد لدى الآخر فإذا ثبت – عن طريق الدراسة – أن إجرامهما متماثلا دل ذلك علي انتقال الميل الإجرامي بالوراثة من السلف إلي الخلف أما إذا كان إجرامهما غير متماثل فإن ذلك يعني انعدام الصلة بين الوراثة والإجرام . أول من أجري مثل هذه الدراسة العالم الألماني لانج Lange على 13 زوج من التوائم المتماثلين و 17 زوج من التوائم غير المتماثلين وانتهي من دراسته إلي أنه توجد نسبة 77% من بين التوائم الحقيقية لديه توافق في ارتكاب الجريمة، بينما كانت نسبة المتوافقين في الجرائم بين التوائم غير الحقيقية (الأخوية) لا تتجاوز 12% . و حسب رأيه فان هذا التشابه الكبير بين التوائم الحقيقية في السلوك الإجرامي دليل على وراثة الإجرام.(اسحاق ابراهيم منصور ،1991.ص 33).

و من الانتقادات التي وجهت إلى طريقة دراسة التوائم أنها اعتمدت على حالات قليلة ومنتقاة وهذا يخالف أسلوب الإحصاء العلمي السليم الذي يتطلب الرجوع إلي عدد كبير من الحالات و من ثم من الصعب تعميم النتائج المتحصل عليها. .

و من أهم النظريات التي تبنت وراثة السلوك الاجرامي **النظرية التكوينية للمبروزو**

و يعتقد أنصار هذا الاتجاه أن السلوك الإجرامي يرجع إلى استعداد فطري بيولوجي موروث في الفرد، فهناك علاقة بين السلوك الإجرامي وتكوين الجسم سواء من ناحية البنائية أو الوظيفية لأجهزته المختلفة وخاصة المخ والجهاز العصبي والغدد .

ويعتبر سيزار لمبروزو Cesare Lombroso زعيم هذا الاتجاه وصاحب التفكير الأساسي في تفسير الجريمة بردها إلى أسباب فطرية بيولوجية، لذا فإنه يعد بحق مؤسس المدرسة الوضعية في علم الإجرام التي تسلم بالحتمية البيولوجية للسلوك الاجتماعي .

وقد كان لمبروزو طبيباً مهتماً بدراسات علوم الأحياء ووظائف الأعضاء والتشريح وكان مؤمناً بأن الوراثة هي العامل المسئول عن تكوين السلوك الإجرامي، حيث أنه صاغ نظرية

"المجرم بالفطرة" أو "المجرم المطبوع " فالمجرم يولد مزوداً باستعداد طبيعي للقيام بالأعمال الإجرامية، وحاول أن يحدد لنا الملامح الفيزيقية المجرم في عدة خصائص مثل : ضخامة الفك وضيق الجبهة، واندفاع الأذن بعيداً عن الرأس، وبروز الوجنات، واستطالة الرأس ... الخ ، مما تعرض له في دراساته المتعددة عن "الرجل المجرم" و "المرأة المجرمة . "ويذهب لمبروزو في هذه الدراسات إلى أن وزن دماغ المجرم أقل وزن من دماغ الرجل الشريف، وبوجه عام يحاول هذا الباحث أن يصور لنا المجرم في شكل ضخم، ومرد هذه الضخامة إلى ما يطلق عليه "الارتداد" الذي لا يرجع بالمجرم إلى تكوينه المورفولوجي أو البنائي الخارجي فحسب، ولكنه يختلف عنه كذلك في تكوينه الجسمي الداخلي، وفي بنائه السيكولوجي والعقلي وتتضافر هذه الخصائص لتحول دون إمكانية توافقه السوي مع مجتمعه مما يجعل المجرم شخصاً بدائياً متوحشاً. و حسب راية فان المجرم بالفطرة يشكل صنفا بشريا سفليا undermen يقع في مرحلة وسطية بين الإنسان و الحيوان.(عدنان الدوري.1985. ص 123). وقد ميز لمبروزو بين خمسة أنماط من المجرمين على النحو التالي:

المجرم بالميلاد أو الغريزة

وتميز هذا المجرم بوجود ملامح عضوية خاصة وارتدادية، وسمات نفسية وعقلية، ومزاجية تمثل ردة وراثية إلى صفات وسمات الإنسان الأول والمخلوقات البدائية.

المجرم المجنون

وهو مصاب بنقص عقلي يفقده ملكة التمييز بين الخير والشر، وهو يشبه في تصرفاته المجرم بالفطرة، ولذلك ينبغي أن يوضع في مصحة عقلية حتى تتقي شره ويعالج من مرضه.

المجرم بالعادة

يولد هذا المجرم دون أن تتوافر لديه صفات المجرم بالميلاد وهو مصاب بضعف خلقي، ويعتاد

على ارتكاب جرائمه بتأثير ظروف اجتماعية تغرس فيه النزعة إلى ارتكاب الجريمة، ومن أهم هذه الظروف: اتصاله بالمسجونين، وإدمانه المخدرات والخمور، والبطالة. الأمر الذي يكسبه استعداداً إجرامياً.

المجرم بالصدفة

ويتميز هذا المجرم بعدم وجود ميل أصيل إلى الإجرام، كما أنه لا يسعى وراء الجريمة، وإنما يخضع بصورة تلقائية وقوية لمجموعة من المؤثرات الخارجية الطارئة، فيعجز عن تقدير نتائج وعواقب فعله.

المجرم بالعاطفة

لا يرتكب المجرم بالعاطفة جريمته بسبب تكوين وراثي خاص أو ضعف في قواه العقلية، وإنما يرجع سلوكه الإجرامي إلى أسباب أخرى عاطفية مثل: الحب، والغضب، والحقد، والغيرة، والحماس، والدفاع عن الشرف. ويتميز المجرم في هذه الحالة بشعور رهف وحساسية مفرطة لا يمكن مقاومتها، وبالتالي فهو شخص يتميز بحساسية مفرطة تجعله عرضة لانفعالات هوجاء كالغصب و الحب و الغيرة تؤدي به إلى القيام بسلوكات مجرمة. (عبد الرحمان محمد أبو توتة. 1999.ص 86) .

الدراسات الجينية:

إن البحوث الجادة الحديثة تشير إلى العلاقة الوثيقة بين الجينات والميول لارتكاب الجرائم باختلاف درجاتها ابتداء من العنف البسيط وانتهاء بالقتل بأبشع صوره. فالدراسات التي أجريت على حالات التبني لأطفال من قبل أباء غير بيولوجين. حيث أن حالات تبني الأطفال أفضل السبل للتحري عن الدور الفاعل للعامل الوراثي في إظهار سلوك العنف والعدوانية. توفر الدراسات الجنائية وغير ها التي أجريت على عدد كبير جدا من الأطفال الذين تم تبنيهم ومقارنتهم بآبائهم الحقيقين (البيولوجين) . وجدت تلك الدراسات أن السلوك الإجرامي والعدوانية والعنف ينتقل من الآباء البيولوجيين إلى أبنائهم بشكل ملحوظ رغم أن

الأطفال ترعرعوا في بيئات وعوائل مختلفة بعيدين عن أبائهم الأصليين. وكان الاستنتاج أن العامل الوراثي كان له الدور الكبير في طهور السلوك الإجرامي. (Salah Hadi Salah al Fatlawi .2017.p 158)

-كما أن الدراسات على المهاجرين رغم أنها لم تركز كثيرا على أسباب العنف الوراثية إلا أن ما يظهر على الساحة الدولية من مظاهر عنف بسبب هؤلاء المهاجرين (يشكل دليلا على احتفاظ المهاجرين) لعواملهم الوراثية المسببة للعنف. وقد عبرت عن نفسها رغم أن البيئة قد تغيرت عليهم. وان انتقال احد التوأمين المتماثلين إلى بلد آخر يمكن اعتباره من المهاجرين لأنه سيعيش في بيئة جديدة تختلف عن بيئة أخيه الذي ظل في مكان ولادته، ورغم اختلاف البيئة فان السلوكيات العدوانية ظهرت في كلا التوأمين . .(Salah Hadi Salah al Fatlawi .2017.p 159).

العوامل الكروموزومية:

من الحقائق العلمية أن التركيب الوراثي للرجال هو (XX,46) وللنساء هو (XY,46) ولكن إذا ما حدث وان حدث خطأ أو طفرة كروموزومية ينتج عنها إضافة كروموزوم آخر إلى التركيب الوراثية فسيكون المولود حاملا خلالا وراثيا له ميزاته وعواقبه ومن تلك الأمثلة المتعلقة بالأمراض العقلية والنفسية والعنف هي-:

متلازمة كلاينفلتر Klinfelter تتميز هذه المتلازمة بان الشخص يولد بتركيب كروموزومي هو XXY,47 أي وجود كروموزوم X إضافي. وان معدل تكرار ظهور ها في البلدان المتطورة حوالي 152 لكل 100000 شخص. و يميل المصابين بمتلازمة كلاينفلتر إلى إظهار بعض المظاهر النفسية الانعزالية والتوحد ووجود اختلالات سلوكية وإدراكية ومعرضين للمشاكل العاطفية والنفسية الاجتماعية كالانسحاب الاجتماعي والقلق الاجتماعي والخجل والاندفاع والسلوك الاجتماعي غير اللائق. و أثبتت بعض البحوث إدانة هؤلاء الأشخاص بالعنف و بالعديد من الجرائم مثل: العنف الجنسي والسرقة والسطو والعنف الجسدي والحرق العمد.

-**متلازمة جيكوبز :** **Jacobs Syndrome** تتميز هذه المتلازمة بان الشخص يولد بتركيب كروموزومي هو XYY,47 أي وجود كروموزوم Y إضافي. و يكون معدل تواجدهم في المجتمع 1/ 1000 حالة ولادة ذكور. وتوالت الدراسات لتربط بين حاملي هذه المتلازمة والعديد من الأمراض النفسية والعقلية والعنف وسلوكات معادية للمجتمع. وفي دراسة حديثة تم ملاحظة زيادة معدل الإدانة الجنائية لأفراد متلازمة جيكوبز مقارنة بالأشخاص الطبيعيين.

- **الجنس الثالث** او ازدواجية الجنس **Intersex** .

و هو ولادة شخص لا تنطبق عليه معايير تحديد الجنس للذكر أو الأنثى. يطلق مصطلح الجنس الثالث أو التداخل الجنسي على أي فرد لا تنطبق عليه المعايير الذكرية أو الأنثوية. فالتداخل الجنسي إذا هو ولادة أطفال بأعضاء جنسية خارجية مغايرة للجنس الحقيقي الداخلي لهم يرافقها وجود كروموزومات و هرمونات و مناسل لا تطابق الجنس الظاهري لهم. و هناك الجوانب النفسية والمستقبلية التي ترافق حياة تلك الحالات والتي تقودهم للانتحار أحيانا.

(Salah Hadi Salah al Fatlawi .2017.p.p159.160).خاصة بسبب اضطراب الهوية الجنسية لدى هؤلاء.

-**اضطراب النظام الهرموني** خاصة على مستوى إفرازات الغدد الصماء بالزيادة أو النقصان مثل : زيادة إفراز الهرمون الجنسي التستستيرون او هرمون النمو GH الأمر ينعكس سلبا و بطريقة مباشرة على الفيزيولوجي و المورفولوجي ، و بطريقة غير مباشرة على الحالة الجسمية المزاجية للفرد و من ثم على سلوكه.

-**تأثير النواقل العصبية** عند اضطراب وظائفها الحيوية على الجهاز العصبي كلل و على السلوك لاحقا . مثل العجز في نشاط : sérotonine و dopamine و acétycholine الذي قد يسبب الإدمان على الكحول و المخدرات.

- **الجنس** : فمن الحقائق العلمية أن إجرام المرأة يختلف عن إجرام الرجل كما و نوعا و أسلوبا و جسامة . و ما يدعم هذه الحقيقة أن العديد من الإحصاءات تؤكد بان إجرام الرجل أكثر من إجرام المرأة بعدة أضعاف. و يرجع ذلك لعدة عوامل جسمية و نفسية و اجتماعية و ثقافية.

و كخلاصة لتأثير العوامل البيولوجية بما فيها الوراثة . فان غالبية علماء الإجرام يميلون إلي اعتبار الوراثة أحد عوامل الإجرام الذي لابد من تفاعله مع عوامل أخرى لإنتاج السلوك الإجرامي وأن دورها يقتصر فقط على نقل الاستعداد الإجرامي لإثبات العلاقة بين الوراثة والظاهرة الإجرامية . من أجل ذلك يكون صحيحا القول بأن الوراثة ليست هي العامل الوحيد الحاسم في ظاهرة الإجرام وإنما لابد أن تتفاعل معها عوامل أخرى بيئية وغير بيئية لإنتاج هذه الظاهرة.